مقدمة في انواع العمائر والعناصر المعمارية الاسلامية

للعمارة الاسلامية شخصيتها وطابعها المميز الذي تلتقطه العين مباشرة ولا تخطئه فتصميه الاجمالي وعناصره المعمارية وزخارفه المستعملة كلها تنطق بتأثير الاسلام فيها.

وقد نبغ المهندس العربي في اعماله الهندسية المعمارية ووضع الرسوم والتفصيلات الدقيقة اللازمة للتنفيذ كما وضع المؤلفات الكثيرة في علوم الهندسة والرياضيات وقد سجل لنا التاريخ اسماء الكثيرين من نوابغ المهندسين العرب الذين وضعوا تصميمات المباني العربية العظيمة التي نرى معظمها شاخصاً لحد الوقت الحاضر. وتتمثل هذه المباني في :

١ . المساجد :

وهي مساحات من الارض صغيرة كانت او كبيرة يعين فيها اتجاه القبلة وتخصص للصلاة وقد تسور هذه المساحات او لا تسور وقد تفرش بالحصى او الحصر او البسط الغالية وقد تقام فوقها مبانٍ ضخمة ذات جدران وسقوف وقباب ومآذن وقد لا يقام من ذلك شيئ ويظل المسجد مكاناً مقدساً واضح الشخصية لا يقل في هيبته عن اضخم المساجد. ولقد انشأ الرسول محمد (ﷺ) مسجده في المدينة المنورة بوحي من الاسلام وحده لم ينظر قبل انشائه الى عمارة كنيسة او بيعة او غيرها وجاء مسجده على بساطته المتناهية وافياً تماماً بكل ما تطلبت الجماعة منه وهذه هي الاصالة بذاتها واصبح للمساجد الاسلامية نظام لا تخرج عنه مستمد في اساسه من هذا المسجد.

ولمعظم المساجد جزء اوسط يسمى الصحن يحيط به اربعة اروقة اكبرها رواق القبلة، وفيه المحراب وعن يمينه المنبر، وجنبتان ومؤخرة. وتحمل السقوف عقود ترتكز على اعمدة من الرخام او الحجر او اكتاف من الآجر او الحجر او ان السقف يستند مباشرة على هذه الروافع دون الاستعانة بالاقواس. وتتميز معظم المساجد بمداخلها الضخمة وبقبابها ومآذنها.

وكان يراعى قبل تخطيط المسجد الجامع ان يكون موقعه وسط العمران ويتخذ من جدار القبلة قاعدة للتخطيط ويحاط بجدران سميكة تحصره في حدود مربعة يفتح فيها ابواب حسب الحاجة اليها ولا تفتح فيها نوافذ الى الخارج إلا قليلاً ولذلك اتجهت العناية الى تصميم الافنية الداخلية التي تفتح عليها الفتحات الهامة الرئيسة في المسجد.

ولحماية المسجد من ضوضاء المنطقة المحيطة به احيط بعض المساجد بفضاءات (زيادات) واسعة توفر الهدوء والسكينة للمتعبدين والدارسين.

ومن المظاهر المعمارية الخارجية المهمة للمسجد المئذنة التي يعلن منها الاذان واعتبرت علامة دالة على المسجد وكذلك القبة وقد دخلت المسجد عناصر اخرى عندما دعت الحاجة الى ذلك كالمنبر والمقصورة والمحراب المجوف وغيرها.

٢. الاربطـــة :

نوع من التكنات العسكرية التي يقيم فيها المجاهدون على الثغور بصورة خاصة وانتشرت في جهات مختلفة من العالم الاسلامي وفي شمالي افريقيا وبلاد الشام على وجه الخصوص.

ويغلب ان يكون التخطيط العام لهذه الربط على شكل مستطيل جدرانه الخارجية مزودة بابراج للتقوية وللمراقبة وللدفاع وفي الداخل صحن تحيط به حجرات صغيرة بطابقين على الاغلب لسكن المجاهدين ونجد به مسجداً للعبادة واداء الشعائر الدينية.

فالربط حصون منيعة مسورة من الخارج بجدران ضخمة متينة مدعمة بابراج شبه اسطوانية يعلو بعضها شرفات ذات اشكال متعددة يرتفع منارها شاهقاً وهي ذات مدخل واحد محصن قد تعلوه قبة وكل هذه المظاهر الخارجية توحي بأن البناية ذات طابع عسكري وخارجها ينم عن داخلها الذي نراه مستوف للاغراض العسكرية ولحاجات المحاربين المنقطعين للاقامة الطويلة لغرض الدفاع عن الدولة في تلك الحدود النائية.

وبعد ان انتفت الحاجة الحربية العسكرية للاربطة اصبحت بيوتاً للتقشف يسكنها المتصوفون والمنقطعون للعبادة والدراسة.

٣. المدارس :

اما المدارس فهي مساجد جعلت وقفاً على العلم الى جانب اقامة الشعائر الدينية فيها وقد اهتم المعمار العربي المسلم في بنائها لتؤمن حاجة الطلبة. الى قاعات دراسة وحجرات وغرف للاقامة والى مسجد تقام فيه الشعائر الدينية مع المحافظة على المظهر العام للمسجد وللعمارة الاسلامية عموماً من اقواس وعقود ومقرنصات واواوين وباحات واسعة اضافة الى الجدران السميكة واضعاً نصب عينيه ضرورة التهوية والاضاءة واهميتها لمثل هذه الابنية التي لم تعرف بصفتها الرسمية إلا في القرن الخامس الهجري (١١ م).

وعند بناء المدرسة يحسب لجدار القبلة فيها حسابا خاصاً بحيث لا يتعارض وتخطيطها ككل ويقوم احد جدرانها المنتظمة مقام القبلة. والتخطيط النموذجي للمدرسة يتكون من صحن مكشوف تطل عليه ايوانات مسقوفة وعلى جوانبها غرف بطابقين على الاغلب لسكن الطلبة والمدرسين اضافة الى مسجد لاقامة الصلاة وقاعات كبيرة للتدريس ولحفظ الكتب المخطوطة اضافة الى ملحقات اخرى كالحمام والمطبخ وغيرهما. وقد تضم بعض المدارس اضرحة منشئيها وخير مثال لها المدرسة المستنصرية والمدرسة المرجانية ببغداد.

وقد انشئت المدارس لتدريس الفقه الاسلامي والثابت ان عدد الايوانات في المدرسة الواحدة لا يرتبط بنوع الدراسة التي تدرس فيها وربما جاء تطوراً طبيعياً لتخطيط المسجد بما فيه من مقدمة ومؤخرة وجهتان.

والمئذنة التي هي عنوان المسجد الجامع ورايته نراها في المدرسة تبرز الطابع الديني للمدرسة وتؤكد صفة الجماعة فيها.

٤. الاضـــرحة :

للقبر تسميات عدة منها الضريح ويسمى قبة او تربة او مشهد او مرقد او مهل وهي البناء الذي يقام على رفاة حاكم او شخص له صفة دينية ويوضع فوق القبر تركيبة من الخشب او الرخام او الحجر او الطابوق واغلب ما كانت تبنى هذه الاضرحة على صورتين: صورة البرج او صورة القبة حسب البلاد التي اقيمت فيها وكثيراً ما الحقت الاضرحة بالمساجد او المدارس التي اقامها اصحاب تلك الاضرحة.

وتخطيط الاضرحة في العراق ولاسيما تلك التي انشئت في بغداد وكربلاء والنجف وسامراء يتكون من قاعة كبيرة في الوسط تضم الضريح فوقها قبة كبيرة ويؤدى اليها مداخل كبيرة ثم رواق يدور حول القاعة من جميع جهاتها وتحف بالمدخل الرئيس منارتان احياناً اما جوانب البناء فتتألف من سلسلة من الحجرات والغرف يفصلها عن قاعة الضريح صحن فسيح.

٥. الحـــامات :

وبناء الحمامات في العصر الاسلامي بقي استمراراً لتقاليد فن عمارة الحمامات في بلاد الشام والذي كان سائداً فيها قبل الاسلام. وكان انتشارها في المدن الاسلامية كبيراً لسبب تأكيد الاسلام على النظافة في كل الظروف. ويقسم الحمام بصورة عامة الى ثلاثة اقسـ

حسب درجة حرارة المياه فكانت هناك القاعة الباردة ثم الدافئة ثم الساخنة. وكانت المياه تسخن بطريقة ايقاد النار تحت الارض وكانت المياه الباردة والساخنة تجري في انابيب ممتدة في الارضية وفي الجدران التي كانت تزين من الداخل بالصور والرسوم المختلفة بقصد الترفيه عن المستحمين وادخال السرور الى نفوسهم. ومن الامثلة المبكرة في الاسلام لتلك الحمامات والقاعة حتى الوقت الحاضر والتي كان بعضها آية في فن العمارة والزخرفة واصول توزيع المياه ما نراه في قصير عمرة وفي حمام الصرخ في بلاد الشام (شكل ١ و٢) وفي قصر الحمراء نموذج لحمام يرجع الى القرن الثامن الهجري/ القرن الرابع عشر الميلادي يتألف من نفس العناصر الشاخصة في حمامات بلاد الشام.

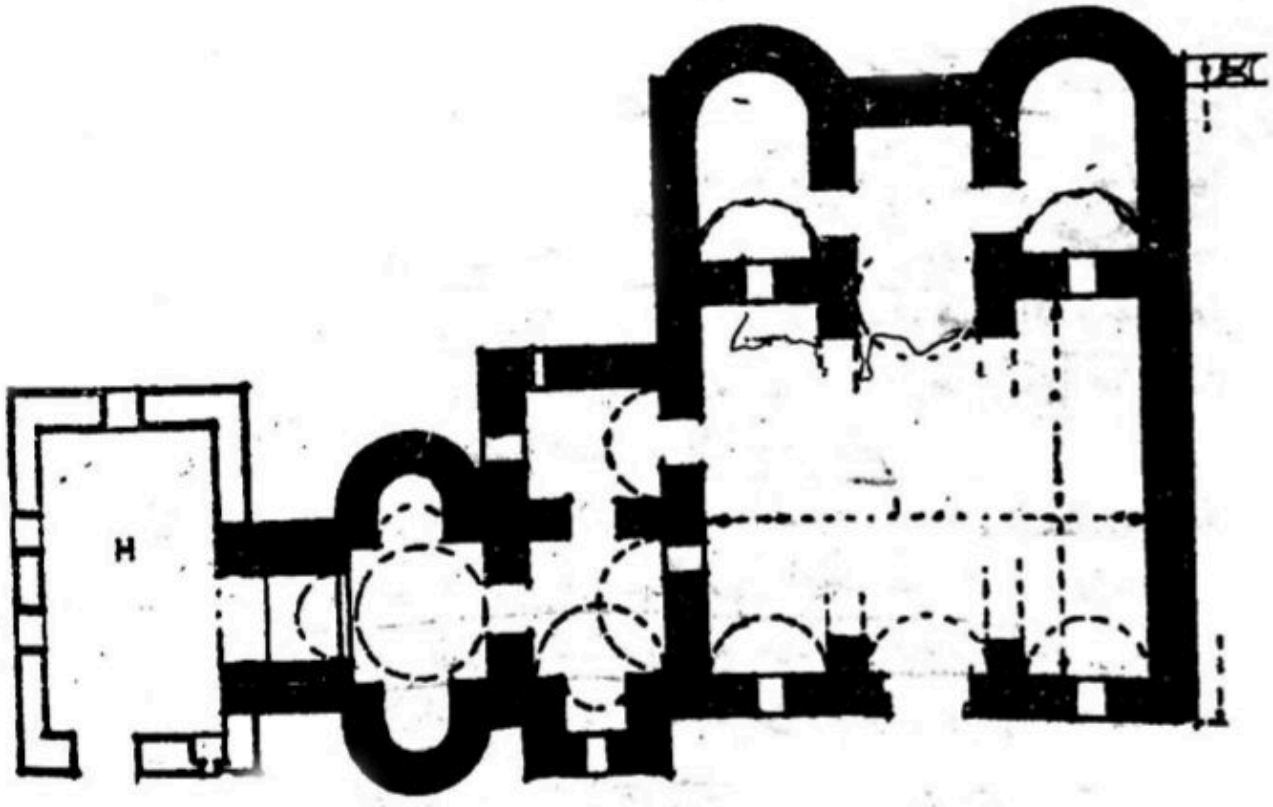

شكل (١) قصير عمرة - الحمام وقاعة الاستقبال